خواطر في السياسية

د. محمد العبدة

نحن والغرب وطبيعة الخطاب

ليس جديداً الحديث عن الغرب ، فهو حاضر منذ ثلاثة قرون وفي العالم كله ، ولكن بعد أن ظنّت أمريكا أنها استفردت بالعالم ، وبعد العولمة ومآلاتها ، وبعد ٩/١١ واحتلال العراق كثر الحديث عن طبيعة الخطاب مع الغرب ، وبعض الناس (هرول) حتى يحسن صورته مع هذا الغرب ، وبعضهم أراد أن يحسن صورة الإسلام ، وكأن الإسلام بحاجة إلى تحسين صورته .

وقبل الحديث عن الخطاب وما يدور حول الخطاب ، ألا يجب علينا أن نتعرف على المكونات الثقافية للغرب ، هناك حقائق لا بد ن تذكر ، ولا بد أن تعرفها الأجيال لتتعرف على المأساة دون زيادة أو نقصان ، وهذا التعرف لا يعني بحال القطيعة مع حضارة قوية عاتية قدمت للعلم الشيء الكثير ، ولكنها في الوقت هي حضارة متكبرة نفعية يغلب عليها الطابع المادي الذي يريد زعزعة اليقينيات الدينية .

وهذا التعرف لا يعني أيضاً الجمود على مقولات معينة ، بل يجب أن نتابع ونلاحظ التطورات الحاصلة على الساحة الغربية مثل المظاهرات المليونية التي خرجت من عواصم أوروبا معارضة للحرب ، ومعارضة لغرور أمريكا . يقول مالك بن نبي الذي عاش مدة طويلة في الغرب وتعمق في الاطلاع على ثقافة الغرب يقول : « الفرد الأوروبي يحمل جراثيم الكبرياء ، لأنه يتلقاها منذ الطفولة ، ويتكون فيه تصوره للعالم ، فهو يعتقد أن التاريخ والحضارة يبتدئان من أثينا ويمران

على روما ثم يختفيان فجأة لمدة ألف سنة ، ثم يظهران من جديد في باريس » [١] .
فهذا الغرب لا يتصور تجربة في الحياة خارج إطار حضارته وغيرهم " متخلف " فهو يكفرنا حضارياً كما يقول المستشار طارق البشري ، وفي عام ١٩٦٢م قال رئيس وزراء الصين " شؤان لاي " : « رغم كل عصور الحضارة التي يحملها تاريخنا ، ورغم كل ما أسديناه للجنس البشري لم ينلنا من الغرب سوى الإذلال » .

ويقول المسلم النمساوي محمد أسد : « عندما يبحث أحد الغربيين في الهندوسية مثلاً أو في البوذية فإنه يعي دائماً الفروق الأساسية بين هذين المعتقدين وبين معتقده ، إنه يتبصر في مثل هذه الثقافات برصانة واتزان ، وأحياناً بتقدير وإكبار ، بيد أنه عندما يصل الأمر إلى الإسلام – وهو دين سماوي — ليس غريباً عنه ، فإن المحاباة العاطفية تضطرب وتختل ، فهل السبب في ذلك يعود إلى أن قيم الإسلام تشكل خطراً ممكناً على المفاهيم الغربية ؟ ولكن يجب أن نعود إلى التاريخ لنفهم الأساس النفسي .

إن ما يشعر به الغربيون نحو الإسلام متأصل من انفعالات ولدت في إبان الحروب الصليبية » [٢] .

إذا أردنا أن نفهم الغرب يجب علينا ألاّ نفسره أجزاء ، بل ننفذ إلى أعماق الضمير الغربي وما يحمل من فلسفة ذرائعية تقوم على أن الحق هو ما يحقق النفع للرجل الأبيض ، هذه الذرائعية هي التي تجعله يستخدم الدين " كرافعة " لمصالحه الخاصة ، فيدعم التبشير خارج مجتمعاته ، بينما يعلن في داخله أنه علماني لا يتدخل في الأديان .

(1) في مهب المعركة ص١٦١.
(2) الطريق إلى مكة ص١٦-١٧.

فهل ينفع مع هذا الغرب الحكومي أو الرسمي إظهار المسكنة والضعف وأننا أناس لا نخيف أحداً ، إن هذا سيجعله أكثر شراسة وأكثر تكالباً وطمعاً ، والغربي بطبعه يعتبر نفسه في صراع مع الآخر ، وفي صراع مع الطبيعة كما يعبّر دائماً ، فعندما يرى من إنسان أو من أمة الضعف والهوان فهو يحتقر هذا الإنسان . وهذا لا يعني أن الحالة يجب أن تكون حالة عداء ، ولكنها الحقيقة : إما أن نخضع له كما يريد بعض الناس – وهم قلة والحمد لله – أو نتعلم كيف نخاطبه خطاباً قوياً نشعره بذاتيتنا وكرامتنا ، والمسلمون يملكون وسائل كثيرة للضغط على الغرب وتوسيع دائرة الصراع ، وإن كان صراعاً سلمياً وليس عسكرياً ، وذلك لتغيير ميزان القوى . وأما الحوار معه فإن أحد مثقفي الغرب الذين أسلموا " مراد هوفمان " ينصحنا ويقول : « إن الحوار بين الإسلام والغرب هو حوار مستحيل ، وإنما الحوار الأكثر فائدة وفاعلية فهو الحوار بين الإسلام والنصارى في الغرب » [٣] . أي : « حوار مع العقلاء منهم والأحرار » [٤] .

نظرية المؤامرة

قبل أن نتكلم عن الذين يضخمون ويبالغون في الكلام عن حجم المؤامرة على العالم العربي والإسلامي ، أو عمن يقلل من شأنها ولا يعطيها حجمها الحقيقي ، قبل ذلك لا بد من التنبيه على قضية أساسية في الموضوع وهي نفسية

(٣) مقابلة مع مجلة العالم ١٩٩٧/٥/١٧م .
(٤) انظر : المقال الذي كتبه الشيخ سفر الحوالي عن الموحدين في النصرانية : مجلة البيان ، عدد شعبان ١٤٢٥هـ .

المسلم أو العربي التي تتسم بالحدية والأحادية ، فهو إما متشدد أو متساهل ، إما أن يضخم المؤامرة أو ينفيها ، ويمكن أن تقيس على ذلك كثيراً من تصرفاته ومواقفه ، فهذا يدل على خلل في طرق التفكير أو في التوازن النفسي ، فالذي يضخم من حجم المؤامرة ربما يريد أن يستريح من عناء التفكير في البحث عن الأسباب والنتائج ، ولا يتعب نفسه في التعامل مع مشكلة ضعفنا ، فيرمي بها الغرب أو الصهيونية وينتهي الأمر . والذي يقلل من شأن المؤامرة ربما يكون تصرفه ردة فعل على الفريق الأول وليس عن بحث وتأمل أو يريد أن يظهر بمظهر العقلاني البعيد عن التسطيح السياسي وكلا الفريقين لم ينصفا ولم يبحثا بإخلاص وتجرد عن الحقائق ، ومن البداية نقول : إن مشكلة تخلفنا هي مشكلة داخلية : ﴿ ... **قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** ... ﴾ [آل عمران : ١٦٥] ولكن هذا لا ينفي العامل الخارجي الذي هو في الحقيقة مكر الليل والنهار الذي يمارسه الغرب .

ماذا يقول نفاة المؤامرة عن التخطيط الأوروبي الذي استمر ستة قرون لتقسيم العالم الإسلامي والدولة العثمانية ، والذي جمع هذه المخططات وكتب عنها ليس مسلماً ، وإنما وزير روماني ألف كتابه بالفرنسية '' مائة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية '' وقد ترجمه الأمير شكيب أرسلان عند الحديث عن « التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي » (٥) ، والأمثلة كثيرة جداً ولا تخفى عن أصحاب نفاة المؤامرة وآخرها مخططات المحافظون الجدد في أمريكا لتحويل المنطقة العربية الإسلامية إلى '' الشرق الأوسط الكبير '' ، يقول صاحب كتاب '' تحطم الأمم '' : « ولو حدث أن غزت الهند نيبال أو غزت الأرجنتين باراغواي ، فمن غير

(٥) انظر تعليقي على الكتاب والمقدمة التي كتبتها عن أوروبا ، ط. دار ابن حزم .

المرجح تشكيل ائتلاف من طراز حرب الخليج » [٦] ، ويقول الأمير شكيب أرسلان : « ومن الغريب أن مصر عرضت أثناء الحرب العالمية الأولى أن تقاتل إلى جانب الحلفاء بشرط الجلاء الإنكليزي عن مصر فأبت انكلترا ، بل عرضت تركيا أن تكون مع الحلفاء بشرط أن تأمن شرورهم في المستقبل فأبى الحلفاء لأن الحلفاء كانوا قد قرروا التقسيم فيما بينهم ، فلو تحالفوا مع تركيا لما كان ممكناً أن يقتسموا أقاليمها ، ولا يريدون إعطاء مصر أي ثمن مثل الجلاء عن أراضيها ، وكل وعودهم للشريف حسين الذي تحالف معهم ذهبت أدراج الرياح » ، ويتابع الأمير شكيب ليقول : « إن الحلفاء طلبوا العون من كل دولة في العالم إلا العالم الإسلامي لما ينوونه في المستقبل ، وليعلم المسلمون أن الدول المستعمرة لا تقبل من الإسلام حتى ولا الصداقة ، وأنها لا ترضى من المسلمين إلا بذل الأرواح والأموال مجاناً » [٧] .

أكل هذا لا يسمى مؤامرة ؟ ولو تعرضت أمة أخرى لما تعرض له المسلمون لكان حظها الفناء .

أما الذين يضخمون من حجم المؤامرة ، ويرون أن كل مصيبة وكل هزيمة لا بد أن يكون وراءها الغرب أو اليهود ، فهؤلاء لا يبحثون عن الحقائق والأغلب أنهم لا يقرأون ، بل يصل بهم الأمر إلى حد " الوساوس " وهذا لا يليق بمسلم ، يطلب منه القرآن ألا يتكلم إلا بعلم .

(٦) روبرت كوبر : تحطم الأمم ص٩٥ .
(٧) حاضر العالم الإسلامي ص٣٣٠ .